الفصل الثاني

استبدال الصيغ

من الجميل أن يجد المرء راحته في قراءة قول من قال في وصف أسلوب القرآن: إن «الجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد، وأمسّها رحماً بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كمثل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها، وهي أحق به، بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلّا وطنه الأمين، وقراره المكين»[1]، وتكون هذه بأيّ وجهٍ من وجوه الاستبدال التي انماز بها، حتى لكأن المكان الذي توضع فيه مفردة بعينها لا تصلح له غير تلك المفردة نفسها، وكذلك الأداة كما اتضح لنا آنفاً، وسنفرد عنايتنا في هذا الفصل لدراسة الصيغ الفعلية والاسمية التي جرى بينها نسغ الاستبدال لأغراض بيانية تعود إلى مقاصد في الدلالة القرآنية على المعاني المطلوبة في مواضعها، وسنبدأ بصيغ الأفعال لأنها محدودة بالقياس إلى صيغ الأسماء، نعني: في وجوه الاستبدال الذي نشأ بينها، لأنها في حقيقتها لم تجاوز استبدال الماضي بنظيره، والمضارع به أيضاً، ثم وجدنا تسعة أنماط من وجوه الاستبدال بين فئات الأسماء، ستأخذ منّا فيما نستقبل بسطةً واسعة من البحث.

---

(1) محمد عبد الله دراز - النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، الكويت، 1970 م، ط2، ص: 92.

◄ الصيغ الفعلية:

- الماضي ← الماضي:

قال تعالى في سورة الأعراف[1]: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وقال في سورة البقرة[2]: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، فقال: [انْبَجَسَتْ] و[انفَجَرَتْ]، ثم وجدنا سياق آيات البقرة تعداداً لنعم الله تعالى على بني إسرائيل بدءاً بقوله قبل سردها وتذكيرهم بها: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3]، ووجدناه في سورة الأعراف مقام تقريع وتأنيب لهم، لأنهم قوم لا يتعظون، فبعدما أنجاهم الله من بطش فرعون الذي أغرقه في البحر طلبوا من موسى عليه الصلاة والسلام: أن يجعل لهم أصناماً يعبدونها[4]، وحين ذهب موسى لميقات ربه عبدوا العجل[5]، وقد كانوا ينتهكون المحارم، فطلب الله منهم أن يعظّموا حرمة السبت فانتهكوها، واصطادوا الحيتان فيه[6]. وثمة فرق دلالي بين الانفجار والانبجاس، فالانفجار للماء الكثير، والانبجاس للماء القليل، قال الراغب: «يقال: بجس الماء وانبجس: انفجر، لكن الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيّق، والانفجار يستعمل فيه، وفيما يخرج من شيء

(1) سورة الأعراف، الآية: 160.
(2) سورة البقرة، الآية: 60.
(3) سورة البقرة، الآية: 47.
(4) سورة الأعراف، الآية: 138.
(5) سورة الأعراف، الآية: 148.
(6) سورة الأعراف، الآية: 163.

واسع»[1]، وقد ناسبت كل صيغة منهما مقامها، لأن المقام في سورة البقرة مقام تعداد النعم، وفي سورة الأعراف مقام تقريع وتأنيب.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن موسى عليه الصلاة والسلام هو الذي استسقى ربه في سورة البقرة: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾، فناسب ذلك إجابته بانفجار الماء تكريماً له، بيد أن الواقع في سورة الأعراف هو طلب بني إسرائيل منه السّقيا: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾، فناسب ذلك إجابتهم بانبجاس الماء[2]، كل هذا إلى جانب قوله تعالى لموسى في آية البقرة: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، من غير أن يذكر أنه أوحى إليه وحياً، فناسب انفجار الماء الغزير، بخلاف ما في آية الأعراف التي ذكر فيه الوحي: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، فوقع بالانبجاس، وفضلاً عمّا سبق فإن هناك سبباً آخر دعا إلى ذكر الانفجار في آية البقرة، والانبجاس في آية الأعراف، ذلك هو قوله: تعالى في آية البقرة: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾، فجمع لهم ﷺ بين الأكل والشرب، واكتفى في آية الأعراف بالإشارة إلى الأكل وحده: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ دون الشرب[3]، فناسب من هذه الجهة أيضاً أن يبالغ في ذكر الماء في آية البقرة. والفاء قبل الفعلين في الآيتين عاطفة على جملة محذوفة، والتقدير: فضرب فانبجست، فانفجرت[4]، وقد حذفت هذه الجملة لدلالة الفعلين عليها، لأنه يُعلم من الانبجاس والانفجار أن موسى قد

(1) المفردات في غريب القرآن، ص: 37؛ وينظر: التفسير الكبير: (3/ 96)؛ الجامع لأحكام القرآن: (1/ 419)؛ الإتقان: (3/ 393)؛ معترك الأقران: (3/ 10).

(2) ينظر: ملاك التأويل: (1/ 212 - 213)؛ معترك الأقران: (3/ 10).

(3) ينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 30.

(4) ينظر: الزجاج - إعراب القرآن المنسوب إليه، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة، 1963 م: (1/ 13)؛ الخصائص: (1/ 289)؛ البحر المحيط: (1/ 227)؛ مغني اللبيب، ص: 820؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 3/ 282، 1/ 106؛ فتح القدير: 1/ 91.

ضرب الحجر قيل وقوعهما[1]، وللدلالة على «أن الموحى إليه لم يتوقف عن اتباع الأمر، وأنه من انتفاء الشك عنه بحيث لا حاجة إلى الإفصاح به»[2]، لأن صيغة «انفعل» بناء مطاوع[3]، نحو: قطعته فانقطع، وشرحته فانشرح. فظهر من هذا أن كلاً من الفعلين الماضيين قد وقع في سياق آيته موقعه المناسب لمعانيها ومقاصدها في قصة موسى وبني إسرائيل.

ومن استبدال الماضي بالماضي أيضاً قوله تعالى في سورة النمل[4]: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾، وقوله في سورة الزمر[5]: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، فاستبدل (صَعِقَ) بـ(فَزِعَ). وقد عُبّر عن هذين الحدثين بالمضي مع أنهما من الأحداث المستقبلة للإشعار بتحقق وقوعهما[6]، وأنهما كائنتان لا محالة، فكما أنه لا شك في حدوث الفعل الماضي الذي تم وحصل، كذلك لا شك في حدوث هذه الأفعال التي هي بمنزلة الفعل الماضي في تحقق الوقوع، ذلك أنّ «المستقبل بالنسبة لله حدث في علمه وانتهى، وكل ما سوف يأتي في الغد القريب والبعيد بالنسبة لله تحصيل حاصل، ولهذا نجد الله يصف أحداث يوم القيامة بالفعل الماضي مع أنها مستقبل، وذلك

(1) ينظر: الفرّاء - معاني القرآن: (1/ 40)؛ البيان في غريب إعراب القرآن: (1/ 85)؛ البرهان في علوم القرآن: (3/ 116).
(2) الكشاف: (2/ 124).
(3) ينظر: شرح المفصل: (7/ 159).
(4) سورة النمل، الآية: 87.
(5) سورة الزمر، الآية: 68.
(6) ينظر: الكشاف: (3/ 161)؛ التفسير الكبير: (24/ 220)؛ شرح الرضي على الكافية: (4/ 12)؛ الفوائد المشوق، ص: 32؛ مغني اللبيب، ص: 113؛ البرهان في علوم القرآن: (3/ 337)؛ الإتقان: (2/ 173)؛ معترك الأقران: (1/ 577)؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (6/ 303)؛ فتح القدير: (4/ 155)؛ من بلاغة النظم العربي، ص: 210؛ الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، ص: 341.

لأن الله تعالى فوق الزمان والمكان، وهو قد أجرى الزمن على مخلوقاته، ولكنه تنزه ﷻ عن جريان الأزمنة عليه، فكل شيء بالنسبة لعلمه قد حدث»[1]، والفرق بين الفزع والصعق في المعنى، أن الفزع هو: الخوف والانزعاج الذي يعتري الانسانَ من الشيء المخيف[2]، والصعق: الموت عند جمهور المفسرين[3]، قال الراغب: «إنّ الصاعقة هي الصوت الشديد من الجو، ثم يكون منه نار فقط، أو عذاب، أو موت، وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء تأثيرات منها»[4].

ويبدو أن الموت سيكون من أثر الصعقة، كما قال، فإذا سمع الناس النفخ في الصور وهو من الشدة بحيث لا تحتمله طبائعهم، يفزعون عنده، ويصعقون، ويموتون[5].

وإنما قيل في آية النمل: ﴿فَفَزِعَ﴾ لمناسبة ما بعده، وهو قوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾، وقوله في آية أخرى[6]: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[7]، وقد ناسب ختام السورة أولها وما ورد فيها من ذكر الفزع في قصة موسى عليه الصلاة والسلام وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[8]، وكذلك قيل: (صَعِقَ) في آية الزمر لمناسبة ما بعده أيضاً، وهو قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، فإن القيام

(1) مصطفى محمود - من أسرار القرآن، القاهرة، 1977 م، ص: 22.
(2) ينظر: المفردات في غريب القرآن، ص: 379؛ فتح القدير: (4/ 155).
(3) ينظر: تأويل مشكل القرآن، ص: 501؛ جامع البيان في تفسير القرآن: (24/ 20)؛ إصلاح الوجوه والنظائر فقي القرآن الكريم، ص: 281؛ منتخب قرة العيون النواظر، ص: 160؛ البحر المحيط: (7/ 441).
(4) المفردات في غريب القرآن، ص: 281.
(5) ينظر: التفسير الكبير: (24/ 219).
(6) ينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 158؛ معترك الأقران: (3/ 418).
(7) سورة النمل، الآية: 89.
(8) سورة النمل، الآية: 10.

في مقابل الصعقة، وقد ناسب ذكر الصعقة في السورة المذكورة قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[2].

- المضارع ← الماضي:

ومن استبدال المضارع بالماضي قوله تعالى في سورة الحديد[3]: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وقوله في سورة الحشر[4]: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فقال: ﴿سَبَّحَ﴾ و﴿يُسَبِّحُ﴾، ونظائر هذه واردة في سورتي الحشر والصف[5]: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وسورة الجمعة[6]: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، وسورة التغابن[7]: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، والتسبيح لله تنزيهه تعالى وتبعيده عن السوء[8]، ومجيئه بصيغة الماضي حيناً وصيغة المضارع حيناً آخر لا يخلو من الإشارة إلى ديمومة هذا القصد بتسبيح كل الموجودات لله في الماضي والحال والاستقبال[9]. ودلالة الصيغتين على ذلك واضحة بما يعرف لكل منهما من معاني الزمان التي يدركها المتأمل بما لا يحتاج في أكثره إلى قرائن سياقية.

---

(1) سورة الزمر، الآية: 30.
(2) سورة الزمر، الآية: 42.
(3) سورة الحديد، الآية: 1.
(4) سورة الحشر، الآية: 24.
(5) سورة الحشر، الآية 1، سورة الصف، الآية: 1.
(6) سورة الجمعة، الآية: 1.
(7) سورة التغابن، الآية: 1.
(8) المفردات في غريب القرآن، ص: 221؛ التفسير الكبير: (29/ 205).
(9) ينظر: التفسير الكبير: (29/ 206)؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (8/ 203).

◄ الصيغ الاسمية:

- الاسم ← الاسم:

قال تعالى في سورة الأحزاب[1]: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، وقال في سورة النساء[2]: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، فقال: ﴿خَيْرًا﴾ و﴿شَيْئًا﴾ في الآيتين، وقد جاءت آية النساء بعد قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[3]، فذكر أنه تعالى لا يحب الجهر بالسوء، ليكون إبداء الخير مقابلةً للجهر بالسوء، جرياً على ما تردد من سورة النساء كلها من الدعوة إلى الإصلاح والعفو والتجاوز عن السيئات، بيد أن السياق في آية الأحزاب متعلق بعلمه تعالى بالأشياء الخافية والظاهرة من الخير والشر، فقد سبق الآية المذكورة قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾[4]، وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾[5]، ولحقها قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[6]، لإرادة التوبيخ والتحذير من إضمار ما لا يحسن إضماره لمن تقدم ذكره في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[7]، ومن أشير إليه في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾[8]، فقيل لهم في هذه الآية: «إن الله تعالى يعلم ما تخفونه من هذه المعتقدات والخواطر المكروهة، ويجازيكم

(1) سورة الأحزاب، الآية: 54.
(2) سورة النساء، الآية: 149.
(3) سورة النساء، الآية: 148.
(4) سورة الأحزاب، الآية: 51.
(5) سورة الأحزاب، الآية: 52.
(6) سورة الأحزاب، الآية: 54.
(7) سورة الأحزاب، الآية: 53.
(8) سورة الأحزاب، الآية: 53.

عليها، فصارت هذه الآية منعطفةً على ما قبلها، مبيّنةً لها»[1]، فكان لفظ «الشيء» أعمَّ من لفظ «الخير»، لأنه يشمل الخير والشر، أضف إلى هذا أن الجو التعبيري لكل من سورتي النساء والأحزاب قد اقتضى وضع كل واحدة من كلمتي: الشيء والخير في موضعهما في آيتيهما، وذلك لتردد كلمة: «الخير» في النساء اثنتي عشرة مرة[2]، ومرتين في الأحزاب[3] التي ترددت فيها كلمة «الشيء» ست مرات[4].

ومن استبدال الاسم بالاسم قوله تعالى في سورة الأعراف[5]: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّٰصِحِينَ﴾، وقال فيها أيضاً[6]: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾، وهو من استبدال الاسم المفرد بجمعه، وذلك هو: (رِسالة) و(رِسالات).

وقد ورد المفرد في قصة صالح عليه السلام في بعثته إلى الثموديين وحدهم، وورد جمعه في قصة شعيب عليه السلام في بعثته إلى أهل مدين وأصحاب الأيكة[7]، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[8]، وقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟

(1) الجامع لأحكام القرآن: (14/ 231)؛ وينظر: درة التنزيل، ص: 86؛ ملاك التأويل: (1/ 361 - 362).
(2) الآيات: 19، 25، 46، 59، 66، 77، 114، 127، 128، 149، 170، 171.
(3) الآيتان: 19، 25.
(4) الآيات: 27، 40، 52، 54 - في موضعين، 55.
(5) سورة الأعراف، الآية: 79.
(6) سورة الأعراف، الآية: 93.
(7) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن: (9/ 4)؛ درة التنزيل، ص: 159.
(8) سورة الأعراف، الآية: 73.

ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]، وقال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[2] وكان شعيباً قد بلّغ كلاً من الأمتين المضمونَ الاجمالي لكلٍّ من رسالتيه، وإنْ كانتا في حقيقة أمرهما حذواً واحداً من النفح الإلٰهي في خطاب الأمم، ولدى نظر الدارس في كل ما ذكره صالح وشعيب عليهما السلام سيرى أن ما ذكره شعيب من الأوامر والنواهي هي أكثر مما ذكره صالح[3]، الذي قال تعالى على لسانه في دعوته لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4]، وقال: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾[5]، فقد دعاهم إلى الإيمان، والتمس منهم رعاية الناقة الكريمة، في حين توجه شعيب إلى أهل مدين بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[6]، وتوجّه إلى أصحاب الأيكة بقوله: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ

(1) سورة الأعراف، الآية: 85.
(2) سورة الشعراء، الآيتان: 176 - 177.
(3) ينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 84؛ التعبير القرآني، ص: 45 - 46.
(4) سورة الأعراف، الآية: 73.
(5) سورة الشعراء، الآيات: 150 - 153.
(6) سورة الأعراف، الآية: 85.

﴿١٨٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٦﴾﴾[1]، مما سوّغ لمجيء الجمع في قصته بدل المفرد في القصة الأخرى لهذا التغاير في عدد بنود الدعوة التي توّجه بها كل من الرسولين إلى ذويه، على ما حكاه السياق العام لنصّ الدعوتين في القرآن الكريم، وإن كانت الدعوات الثلاث في حقيقة أمرهن كما أسلفنا حلواً واحداً من النفح الإلٰهي في خطاب الأمم.

ومما يماثل ما رأيناه من استبدال المفرد بالجمع في الآيتين المذكورتين آنفاً قوله تعالى أيضاً في سورة الأعراف[2]: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، ونظيرتها في سورة العنكبوت[3]، وقوله في سوة هود[4]: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، وقوله فيها أيضاً[5] ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، بيد أن الفرق بين السابقتين واللاحقتين، أن الاستبدال في الأوليين قد وقع بين المفرد المؤنث وجمع سلامته (رِسالة) و(رِسالات)، وفي الأخريين بين المفرد المؤنث وجمع تكسيره: (دار) و (ديار)، وحين ذكر (الرَّجْفَة)، وهي الزلزلة الشديدة[6] التي حلّت بأرض ثمود وهي قطعة من أرضه الواسعة ﷺ ذكر الدار الواحدة، ولكنه حين ذكر (الصَّيْحَة) الآتية من السماء لتعم أكبر ما يمكن من الأرض، ذكر الديار، لأن أصداءها قد دخلت كل دار فأمات ذويها في مواضعهم فرادى وجماعات، مجتمعين ومفترقين، في حين كان الموت بالرجفة موت الخسف الكبير لما عُدّ داراً واحدة لأمة واحدة، وفي هذا من عظم الهول أكبر في ظاهره مما في الموت بالصيحة

(1) سورة الشعراء، الآيات: 179 - 185.
(2) سورة الأعراف، الآيات: 91،78.
(3) سورة العنكبوت، الآية: 37.
(4) سورة هود، الآية: 67.
(5) سورة هود، الآية: 94.
(6) مجاز القرآن: (1/ 221)؛ جامع البيان في تفسير القرآن: (9/ 4)؛ المفردات في غريب القرآن، ص: 189؛ التفسير الكبير: (14/ 165 - 166)؛ معترك الأقران: (2/ 117).

التي كني بها معنوياً عن فعل الزلزال، لأن دخول أصداء الصيحة إلى كل دار حدث على الحقيقة، ولكن الموت الذي حدث فيها كان شيئاً من ذلك الهول الكبير الذي أحدثه الزلزال.

وربما وقع استبدال جمع تكسير المفرد المؤنث بجمع سلامته، كما في قوله تعالى في سورة الأعراف[1]: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾، وقوله في سورة البقرة[2]: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾، وذلك في (خطايا) و(خطيئات) طلباً لدلالة القلة والكثرة في دلالة كل من الصيغتين على المقصد الإلهي، لأن سياق آيات البقرة فيه تعداد للنعم التي حظي بها بنو إسرائيل بدأ ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[3]، ثم مضى السرد والتذكير في قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾[4] حتى قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[5]، مع خلاء السرد كلّه من مقصد التقريع والتأنيب الذي حكته آيات سورة الأعراف كما ذكرنا في موضع سابق[6]، وقد ختم التقريع والتأنيب بمشهد

(1) سورة الأعراف، الآية: 161.
(2) سورة البقرة، الآية: 58.
(3) سورة البقرة، الآية: 47.
(4) سورة البقرة، الآيات: 49 - 52.
(5) سورة البقرة، الآية 57.
(6) ينظر: الصفحة 92 من هذا الكتاب.

مسخهم قردةً خاسئين: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِئِينَ﴾[1]، وفي جمع التكسير الوارد في سياق آية البقرة إشعار بمقصد الكثرة[2] الكثيرة من الخطايا التي يتجاوز عنها البارئ بسعة عفوه المناسب لما بدأ به عباده من النعم والتكريم، ويعضد هذا إسناده تعالى فعل القول إلى نفسه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ وقرن ذلك بما يليق بجوده وكرمه، وأتى باللفظ الموضوع للشمول ليصير كالتوكيد بالعموم، وكأنه تعالى قد قال: نغفر لكم خطاياكم أجمع[3]، في حين لم يسند القول إلى نفسه في الأعراف، وإنما غيّب الفاعل بقوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾، ثم أتى باللفظ الموضوع للقلة، وكأنه لا يريد تشديد النكير على القوم في موقف تقريعهم وتأنيبهم على ما فرّطوا به في أمر إيمانهم واحترامهم لدعوة نبيهم. ومن مقصد الإقلال والإكثار باستبدال الجمع بالجمع ما نراه من استبدال جمع المذكر السالم بجمع التكسير وذلك بين: (النبيّن) و(الأنبياء) في آيتي البقرة[4]، وآل عمران[5]، أشرنا إليه في موضع سابق أيضاً لدى كلامنا على ذلك الفرق بين دلالة النكرة والمعرفة: (بغير حق) و(بغير الحقّ) في تشخيص طبيعة ذلك التكذيب الذي اتسع فيه بنو إسرائيل بغير حساب[6].

- **المصدر ← المصدر:**

قال تعالى في سورة الرعد[7]: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، وقال في سورة الحج[8]: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ

(1) سورة الأعراف، الآية: 166.
(2) ينظر: الكتاب: (3/ 609)؛ المقتضب: (2/ 188)؛ شرح المفصل: (5/ 9 - 11).
(3) درة التنزيل، ص: 16؛ وينظر: التفسير الكبير: (3/ 92 - 93)؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 28 - 29؛ معترك الأقران: (1/ 88).
(4) سورة البقرة، الآية: 61.
(5) سورة آل عمران، الآية: 112.
(6) ينظر: الصفحة 49 من هذا الكتاب.
(7) سورة الرعد، الآية: 32.
(8) سورة الحج، الآيات: 42 - 44.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾، وقرن العقاب بالاستهزاء في الآية الأولى والنكير بالتكذيب في الثانية، لأن المستهزئين بالرسول ﷺ أعظم جرماً من مكذبيه لما يجمعه الاستهزاء في حقيقته من التكذيب بالقلب قبل الإفصاح عن ذلك باللسان والفعل، لذا كان الوعيد عليه أشد وأدعى لذكر العقاب مباشرة، وهو عقاب للمستهزئ المكذب «وفيه من الدلالة على تناهي كيفيته في الشدة والفظاعة ما لا يخفى»[1]، بيد أن النكير دعوة إلى تغيير الموقف[2]، وردع المكذب[3]الذي لم يظهر الاستهزاء مع فعل التكذيب، قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾[4]، لأن الله ﷻ لم يخبر في هذه الآيات عن كل هذه الأمم بغير التكذيب[5] الذي شفعه فيها بالنكير دون التصريح بما أنزله بهذه الأقوام من العقاب، ونظير هذا ما جاء في سورة فاطر[6] وسورة سبإ[7] من ذكر للتكذيب، ومن ثم التصريح بالنكير، لأن المذكورين في السورتين كذّبوا رسلهم ولكنهم لم يستهزئوا بهم كما يفهم من السياقين، فضلاً عمّا كان من أثر مراعاة الفاصلة بالباء فيما يقرب من الآية في سورة الرعد[8]، وبالراء فيما يقرب من نظيرتها في سورة الحج[9].

(1) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (5/ 24).
(2) ينظر: مجاز القرآن: (2/ 150)؛ جامع البيان في تفسير القرآن: (17/ 127)؛ الكشاف: (3/ 17)؛ التفسير الكبير: (23/ 43).
(3) ينظر: المفردات في غريب القرآن، ص: 505.
(4) سورة الحج، الآيات: 42 - 44.
(5) ينظر: ملاك التأويل: (2/ 706 - 707).
(6) سورة فاطر، الآية: 26.
(7) سورة سبإ، الآية: 45.
(8) سورة الرعد، الآيات: 27، 28، 29، 30، 31.
(9) سورة الحج، الآيات: 38، 39، 40، 41.

ومن استبدال المصدر بالمصدر قوله تعالى في سورة الكهف[1]: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾، وقوله فيها أيضاً[2]: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾، فقال: ﴿إِمْرًا﴾ و﴿نُّكْرًا﴾ في قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع العبد الصالح خضر. الإمر: الداهية، يقال: أصله: كل شيء شديد كثير، وأمِرَ القومُ: إذا كَثُروا واشتد أمرهم، وأمَرَ الأمرُ: إذا عَظُمَ[3]، وقيل: العجبُ[4]. والنُكر: الأمْرُ الصعبُ الذي تنكره العقول وتنفر عنه النفوس[5]، وهو فيما لا يخفى أعظم وأشدّ من الإمر، لأن الإمر قد يُستعمل في المذموم وفي غير المذموم، بيد أن النُكر لا يُستعمل إلّا في المذموم الذي يخرج عن المعروف، وينكره العقل كالقتل بدون سبب ظاهر، أما خرق السفينة وهي تمخر عباب البحر كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾[6]، فقد كان في نظر موسى أمراً مذموماً، ولكنه في نظر العبد الصالح لم يكن كذلك، لأنه قصد به إحداث عيب يسير فيها لا يُتلفها، بل يزهد فيها من يريد غصبها، بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[7]، وكان عيباً يمكن تداركه بالسدّ، لأنه لم يؤد في ساعته إلى إغراق أحدٍ من الركاب، وهو أهون لا محالة من

(1) سورة الكهف، الآية: 71.
(2) سورة الكهف، الآية: 74.
(3) درة التنزيل، ص: 284؛ جامع البيان في تفسير القرآن: (15/ 184)؛ المفردات في غريب القرآن، ص: 25؛ الكشاف: (2/ 493)؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (5/ 235)؛ فتح القدير: (3/ 302)؛ من بديع لغة التنزيل، ص: 205.
(4) درة التنزيل، ص: 284؛ التفسير الكبير: (21/ 155)؛ الجامع لأحكام القرآن: (11/ 19)؛ معترك الأقران: (1/ 565).
(5) جامع البيان في تفسير القرآن: (15/ 185)؛ المفردات في غريب القرآن، ص: 505؛ التفسير الكبير: (21/ 155).
(6) سورة الكهف، الآية: 71.
(7) سورة الكهف، الآية: 79.

قتل الغلام بغير سبب ظاهرٍ مما لا سبيل إلى تداركه[1]، ولمثل هذا قال قتادة (ت 118 هـ): «النكر أشدُّ من الأمر»[2]، وهذا مما لا يدخل في باب الترادف عند اللغويين في أصله كدخول التحويل والتبديل مما يبدو في ظاهره مترادفاً، وهو في حقيقته متفارق في الدلالة القرآنية على المقصود به، كما نرى في قوله تعالى في سورة فاطر[3]: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ نافياً عن سنته التبديل والتحويل، لأنه أراد لها البقاء الدائم على وضعها، والتحويل يكون في الصورة مع بقاء الجوهر على حقيقته، كقولنا: حوّلتُ الكتاب، بمعنى: نقلت صورة ما فيه إلى غيره من غير إزالة الصورة الأولى[4]، والتبديل: جعل الشيء مكان آخر، وهو تغير في الجوهر كله أصلاً وصورةً[5]، وكلتا الصفتين ممتنعة على سنّة الله تعالى فهي لا تتغير كما قضى لها أبداً. وربما خُصّت السنّة بنفي التبديل والتحويل عنها في سياق واحد لمقابلة ما وصف الكفار قبل ذلك بوصفين اثنين[6] أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا﴾[7]، وقوله: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئُۚ﴾[8].

- اسم الفاعل ← اسم الفاعل:

قال تعالى في سورة فصلت[9]: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا

(1) ينظر: درة التنزيل، ص: 284؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 134؛ الكشاف: (2/ 493 – 494)؛ التفسير الكبير: (21/ 155)؛ ملاك التأويل: (2/ 788)؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (5/ 236)؛ فتح القدير: (3/ 302).
(2) جامع البيان في تفسير القرآن: (15/ 185)؛ درة التنزيل، ص: 284.
(3) سورة فاطر، الآية: 43.
(4) المفردات في غريب القرآن، ص: 137؛ لسان العرب: (11/ 48)؛ مادة: بدل.
(5) المفردات في غريب القرآن، ص: 39.
(6) ينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 177.
(7) سورة فاطر، الآية: 39.
(8) سورة فاطر، الآية: 43.
(9) سورة فصلت، الآية: 39.

ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال في سورة الحج[1]: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾، فقال: ﴿خَٰشِعَةً﴾ و﴿هَامِدَةً﴾ في صفة الأرض الظامئة الجرداء قبل نزول الماء، والخشوع: التذلل والتقاصر[2] والهمود: الانطفاء، وهو من أوصاف النار[3]، وقد استعيرا للأرض إذا كانت يابسة لا نبات فيها[4]، ويُستدل بهما على قدرة الخالق على البعث والنشور، وقد وردت الصورتان في سياقين مختلفين، الأولى في سياق قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[5]، والثانية في سياق قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[6]، وجوّ السياق الأول جوّ عبادة كل شيء وخشوعه وسجوده لله، حتى الأرض الظامئة الجرداء قبل أن تتحرك بالنبات بعد المطر، والحديث هنا ليس عن النشأة الأولى. وجوّ السياق الثاني جوّ بعث وإحياء وإخراج، مما يتسق معه تصوير

(1) سورة الحج، الآية: 5.
(2) الكشاف: (3/ 454 - 455)؛ التفسير الكبير: (27/ 130).
(3) ينظر: تأويل مشكل القرآن، ص: 16؛ المفردات في غريب القرآن، ص: 545.
(4) مجاز القرآن: (2/ 45)؛ الكشاف: (3/ 454 - 455)؛ التفسير الكبير: (27/ 130)؛ البحر المحيط: (7/ 499)؛ معترك الأقران: (3/ 301)؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (6/ 95)، (8/ 15).
(5) سورة فصلت، الآيات: 37 - 39.
(6) سورة الحج، الآية: 5.

الأرض بأنها ﴿هَامِدَةً﴾ قبل أن تهتز وتربو، وتنبت من كل نوع بهيج، والمقام هنا حديث عن القدرة الإلٰهية التي توجد حياةً من عدم، وحركةً من همود. ولم يجئ قوله تعالى ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ في سورة الحج كمجيئه في سورة فصلت، لجعله صورةً من قدرة الله تعالى على الإحياء والإيجاد والخلق في معرض الإشارة إلى خشوع الكائنات له من كل نوع وفي كل حين، بيد أن الفعلين في سورة فصلت «تخيّلان حركةً للأرض بعد خشوعها، وهذه الحركة هي المقصودة هنا، لأن كل ما في المشهد يتحرك حركة العبادة، فلم يكن من المناسب أن تبقى الأرض وحدها خاشعة ساكنة، فاهتزت لتشارك العابدين المتحركين في المشهد حركتهم.. وهذا لون من الدقة في تناسق الحركة يسمو على كل تقدير»[1].

ومن استبدال اسم الفاعل بنظيره قوله تعالى في سورة التوبة[2]:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقوله فيها أيضاً[3]: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، وقوله[4]: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فذكر (الظالمين) و(الفاسقين) و(الكافرين)، وقد نزلت الآية الأولى في المشركين الذين كانوا يقومون بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، ثم يرجون بعد ذلك ثواباً من الله مع إشراكهم به، ويقولون لليهود: نحن سقاة الحاج وعُمّار المسجد

(1) سيد قطب - التصوير الفني في القرآن، بيروت، د. ت، ص: 97 - 98.
(2) سورة التوبة، الآية: 19.
(3) سورة التوبة، الآية: 24.
(4) سورة التوبة، الآية: 37.

الحرام، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه؟ فتقول اليهود: أنتم أفضل[1]. وهم بهذا يظلمون أنفسهم بالكفر وقد خلقوا للإيمان، وكانوا يأملون من السقاية والعمارة الانتفاع مع بقائهم كفاراً واضعين الشيء في غير موضعه، فلما فعلوا ذلك، وكان كل مشركٍ ظالماً، وكل منْ وضع شيئاً في غير موضعه ظالماً[2]، لأن الظلم: «وضع الشيء في غير موضعه»[3] عبّر عنهم بالظالمين[4]، وهم الذين سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون بسبب ظلمهم لأنفسهم وللمسجد الحرام الذي أراده تعالى لعبادته، فجعلوه موضعاً لعبادة الأصنام[5]، ونزلت الآية الثانية في الذين تخلفوا عن الهجرة إلى المدينة مع المسلمين، وآثروا البقاء في مكة مع أهلهم وعشيرتهم، وتفضيل مصلحة دنياهم على طاعة الله والجهاد في سبيله وعلى طاعة نبيه الكريم، وفارقوا بذلك دينهم وإيمانهم[6] فسقاً وخروجاً من الطاعة إلى المعصية. والفاسق: هو الخارج عن طاعة الله تعالى وذلك من قولهم: فسق الرُّطب إذا خرج عن قشره، وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشريعة، وأقرّ به، ثم أخلّ بجميع أحكامه أو ببعضه، وهو أعمّ من الكافر، والظالم أعمّ من الفاسق[7]، ونزلت الآية الثالثة في وصف المشركين بفعل النسيء، وهو ما كانوا يفعلونه من تأخير حرمة الشهر إلى الشهر الآخر، ليحلّوا لأنفسهم القتال في الأشهر الحرم بتحليلٍ وتحريمٍ من أنفسهم[8]، فأخبر الله تعالى

(1) الكشاف: (2/ 180)؛ التفسير الكبير: (16/ 11)؛ الجامع لأحكام القرآن: (8/ 92).
(2) ينظر: التفسير الكبير: (16/ 12 - 13).
(3) المفردات في غريب القرآن، ص: 315؛ لسان العرب: (12 - 373) مادة: ظلم.
(4) ينظر: درة التنزيل، ص: 193-194؛ ملاك التأويل: (1/ 585-586)؛ عبد الفتاح لاشين - من أسرار التعبير في القرآن، الفاصلة القرآنية، الرياض، 1982م، ص: 141-143.
(5) ينظر: التفسير الكبير: (16/ 13).
(6) ينظر: درة التنزيل، ص: 194؛ التفسير الكبير: (16/ 19)؛ ملاك التأويل: (1/ 586).
(7) المفردات في غريب القرآن، ص: 380.
(8) ينظر: الكشاف: (2/ 189)؛ التفسير الكبير: (16/ 56 - 57)؛ الجامع لأحكام القرآن: (8/ 137).

أن ذلك زيادة في الكفر، ثم ذكر بأنه لا يهديهم لأنهم ضالّون وموغلون في كفرهم[1]. ونلحظ في كل ما تقدم: كيف وُضعت كلُّ لفظة في موضعها بحيث تناسب طبيعة الحال التي كان عليها البشر الموصوفون بها في أنفسهم وأفعالهم.

ومثل ذلك استبدال الكافرين بالمبطلين في قوله تعالى في سورة غافر[2]: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾، وقوله فيها أيضاً[3]: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾، بحيث تبدو كل واحدة منهما مناسبة للسياق الذي وردت فيه، لورود المبطلين في سياق ذكر الحق، ونقيضه الباطلُ، والثانية في سياق ذكر الإيمان، ونقيضه الكفرُ[4]، قال تعالى في سياقات الأولى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾[5]، وقال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[6]، وقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾. والمبطلون: هم المعاندون والمتمسكون بالباطل على الحق[7]، وقال في سياقات الثانية: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾[8]، وقال: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾، وذلك كمناسبة

(1) ينظر: درة التنزيل، ص: 194 - 195؛ ملاك التأويل: (1/ 586 - 587).
(2) سورة غافر، الآية: 78.
(3) سورة غافر، الآية: 85.
(4) ينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 187.
(5) سورة غافر، الآية: 75.
(6) سورة غافر، الآية: 77.
(7) المفردات في غريب القرآن، ص: 151؛ الكشاف: (3/ 438)؛ التفسير الكبير: (27/ 89)؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (7/ 286).
(8) سورة غافر، الآية: 84.

«مصلحين» لسياق قوله تعالى في سورة هود[1]: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، ومناسبة «غافلين» لسياق قوله في سورة الأنعام[2]: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾، لأن السياق في سورة هود سياق إصلاح ونهي عن الفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾[3]، وهذا يدل على أن القوم كانوا مفسدين، حتى نهاهم أولو بقية كانوا ينهون عن الفساد في الأرض، ولكن أولئك لم يكونوا لينتهوا عن فعلهم الفاسد، فأهلكوا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾. والسياق في سورة الأنعام سياق ذكر للرسل وللإنذار والتبليغ، فقد تقدم الآية ذكر بعثة الرسل للجن والإنس، وإنذارهم وتذكيرهم بالآيات في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾[4]، وبيان أن الله لم يهلك الأقوام إلّا بعد إنذارهم وتكليفهم، فقد قال ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾، لأن من لم ينذر فهو غافل[5]، بدليل قوله تعالى في سورة يس[6]: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

ومن استبدال اسم الفاعل بنظيره أيضاً قوله تعالى في سورة الحجر[7]: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾، وقوله فيها[8]: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾. إنّ الآيتين

(1) سورة هود، الآية: 117.
(2) سورة الأنعام، الآية: 131.
(3) سورة هود، الآية: 116.
(4) سورة الأنعام، الآية: 130.
(5) ينظر: درة التنزيل، ص: 131 - 132؛ ملاك التأويل: (1/ 475 - 476).
(6) سورة يس، الآية: 6.
(7) سورة الحجر، الآية: 73.
(8) سورة الحجر، الآية: 83.

تتحدثان عن لوط وصالح عليهما الصلاة والسلام وقوميهما الذين دُعوا إلى الإيمان، وترك المنكرات، فامتنعوا عن ذلك، واستمروا على كفرهم وعنادهم، فأهلكم بذنوبهم، وسخّر لهم صيحة جبريل[1]، فقال في قوم لوط: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾، وقال في قوم صالح: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾، بمعنى: داخلين في وقت شروق الشمس، وداخلين في وقت الصبح، يقال: أشرق الرجل: إذا دخل في الشروق، وهو بزوغ الشمس[2]، وكذا: أصبح، إذا دخل في الصباح. وقيل: إنّ العذاب قد أدرك قوم لوطٍ عند طلوع الفجر، وامتد إلى شروق الشمس، فكان تمام هلاكهم عند ذلك[3]، يؤيد هذا قوله تعالى فيهم: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾[4]، وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾، وأدرك قومَ صالحٍ عند شروق الشمس، وكانت إطالة عذاب قوم لوط بمجيئه وقت الفجر وامتداده إلى شروق الشمس أشد وأقوى عليهم لأنهم كانوا منكرين للنبوة، فضلاً عن جسامة إتيانهم الفاحشة بخلاف قوم صالح الذين لم يوصفوا بغير التكذيب. وقد رأينا من أمثلة استبدال اسم الفاعل بنظيره أيضاً: (الكافرين) و(المعتدين) في قوله تعالى في سورة الأعراف[5]: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ

(1) ينظر: يحيى بن سلّام - التصاريف، تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه، تحقيق: هند شلبي، تونس: 1970 م: (2/ 240)؛ مجاز القرآن: (1/ 354)؛ الكشاف: (2/ 396).

(2) المفردات في غريب القرآن، ص: 259؛ الكشاف: (2/ 396)؛ التفسير الكبير: (19/ 203)؛ الجامع لأحكام القرآن: (10/ 42)؛ البحر المحيط: (5/ 463 - 464)؛ فتح القدير: (3/ 138 - 140)؛ عبد العزيز عزالدين السيروان - المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن الكريم، بيروت، 1986 م، ط 1، ص 220.

(3) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: (10/ 42)؛ البحر المحيط: (5/ 463)؛ فتح القدير: (3/ 138).

(4) سورة الحجر، الآية: 66.

(5) سورة الأعراف، الآية: 101.

كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وقوله في سورة يونس[1]: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، فقد تضمّنت الآيات التي تقدمت آية الأعراف وصف الأمم التي كذبت الأنبياء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾[2]، وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾[3]، وقال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[4]، وذكر قوم صالح وقولهم لمن آمن به منهم: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[5]، وقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[6]، وجواب قوم لوط إياه حينما دعاهم إلى ترك الفاحشة: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[7]، وقول الملأ من قوم شعيب لمن آمن منهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[8]، وقول شعيب لقومه: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾[9]، وقوله تعالى عقب هذه الآيات كلها: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾[10]، فحصل من هذه الآيات التعريف بحال هذه الأمم، ووصفها بالكفر

(1) سورة يونس، الآية: 74.
(2) سورة الأعراف، الآيتان: 59 - 60.
(3) سورة الأعراف، الآيتان: 65 - 66.
(4) سورة الأعراف، الآية: 72.
(5) سورة الأعراف، الآية: 76.
(6) سورة الأعراف، الآية: 77.
(7) سورة الأعراف، الآية: 82.
(8) سورة الأعراف، الآية: 90.
(9) سورة الأعراف، الآية: 93.
(10) سورة الأعراف، الآية: 101.

الصريح، مما ناسبه أن يقول ﷻ فيها: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. أما آية يونس فلم يتقدم قبلها تفصيل في تكذيب الأمم لأنبيائها، ولا إفصاح بمخاطبة أيّ نبي، ومواجهته، و تكذيبه بمثل ما في آي سورة الأعراف، بل تقدمها في وصف الكفار ما كان كالكناية عنهم، قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[1] الذين عُدّوا معتدين، أي: مجاوزين الحدَّ بكفرهم وتكذيبهم[2]، من غير إفصاحٍ بكفرهم، وإن كان ذلك حاصلاً من مجمل ذكرهم[3].

ومن هذا القبيل: «المسرفون» في قوله تعالى في سورة يونس[4]: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، و«الكافرون» في قوله في سورة الأنعام[5]: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. والمقصود من الآية الأولى: أن الإنسان والمراد به جنسه قليل الصبر عندما تصيبه البلايا والمحن، قليل الشكر عند وجود الآلاء والنعم، فإذا مسّه الضرّ أقبل على التضرع والدعاء في أي حال كان، فإذا كشف الله تعالى عنه ذلك الضرّ بالعافية أعرض عن شكره، ولم يتذكر ما أصابه من ضرّ، ولم يعرف قدر الإنعام، وصار كمن لم يدع الله لكشف الضرّ عنه، وفي ذلك دلالة على ضعف طبيعته، واستيلاء الغفلة عليه[6]، وهذه صفة إسراف بحق النفس والخالق تعمّ الكافر، والمؤمن العاصي[7]، في آن واحد. والمُسرف: هو من تجاوز الحدّ في الأمور، وأنفق

(1) سورة يونس، الآية: 73.
(2) المفردات في غريب القرآن، ص: 326، الجامع لأحكام القرآن: (8/ 365).
(3) ينظر: درة التنزيل، ص: 167، ملاك التأويل: (1/ 558 - 559).
(4) سورة يونس، الآية: 12.
(5) سورة الأنعام، الآية: 122.
(6) التفسير الكبير: (17/ 51).
(7) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: (8/ 317).

الكثير من أجل أغراضه الخسيسة[1]، ويحتمل أن يراد به من أسرف في المعاصي دون الكفر، ومن أسرف في كفره أيضاً من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[2]، فلما كانت صفة الإسراف على نحو ما ذكرناه من الشمول والاحتمال، ولقوله تعالى قبل ذكرها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾[3]، فإن الذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، وغفلوا عن طاعة الله، قد وُصفوا بها لوجهين: «أحدهما: المبالغة في تنعيم النفوس، وجعلهم الدنيا حظّهم بما عرضوا له من النعيم، والثاني: مجاوزتهم الحدّ في معصية الله»[4]، ومعلوم أن لذّات الدنيا وطيباتها قليلة جدّاً إذا ما قيست بسعادات الآخرة، فمن بذل ما أعطاه الله من العقل والفهم والقدرة لأجل الفوز بهذه اللذات الجسمانية الزائلة «كان قد أنفق أشياء عظيمة كثيرة لأجل أن يفوز بأشياء حقيرة.. فوجب أن يكون من المسرفين»[5]، وقد عدّت حال الإنسان في السراء والضراء، وانقطاعه في الشدة إلى الدعاء، وإعراضه عن الشكر عند الرخاء في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾[6] إسرافاً، سواء أكان الإنسان كافراً أم مؤمناً عاصياً لتشمل الفئتين، بخلاف الوصف بالكفر كما في سورة الأنعام التي تقدمها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[7]، وفيه ذكر للمشركين الذين كانوا يجادلون المؤمنين في دين الله تعالى بما وطأ لوصفهم بعد ذلك بقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ

(1) المفردات في غريب القرآن، ص: 230؛ التفسير الكبير: (17/ 52 - 53).
(2) سورة غافر، الآية: 43.
(3) سورة يونس، الآية: 7.
(4) درة التنزيل، ص: 130.
(5) التفسير الكبير: (17/ 53).
(6) سورة يونس، الآية: 12.
(7) سورة الأنعام، الآية: 121.

فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1]، وفي هذا بيان لحال المؤمن المهتدي، وحال الكافر الضال، وأن المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميتاً، فأحياه الله بعد ذلك بنور الإيمان، والكافر بمنزلة المنغمس في ظلمات جهلٍ وكفر لا يمكنه الخلاص منها، بحيث لا يجدي معه إنذار، ولا انتفاع بموعظة، مما يبقيه في درك كفره الأعظم درجةً من الإسراف، لأنه لا يملك أن ينتقل عنه[2] إلى ما هو دونه من درجات المعصية. وفي آية يونس تذكير للإنسان بعد نسيانه وغفلته، لأن مسّه بالضرّ ابتلاء له في دنياه، وتذكير له بما هو آيل إليه من النسيان بطبيعة فطرته. وقد ذكر ابن عباس (ت 68 هـ) ﷺ : أن سبب نزول آية الأنعام هو أن أبا جهل رمى النبي ﷺ بفرثٍ، فأُخبر حمزةُ ابن عبد المطلب عم النبي وهو لم يؤمن بعد، فعمد إلى أبي جهل فضرب رأسه بقوس، فقال له أبو جهل: «أما ترى ما جاء به؟سفّه عقولنا، وسبّ آلهتنا، فقال حمزة: أنتم أسفه الناس، تعبدون الحجارة من دون الله، أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، فنزلت الآية»[3]، فناسب ذكر (الكافرين) هنا، لأن أبا جهل كان كافراً، ثم مات كافراً أيضاً، ولا يناسب حاله أن يوصف بأنه كان مسرفاً حسب.

- اسم الفاعل ← صيغة المبالغة:

ولم نجد هذه الحالة إلّا في موضع قرآني واحد، قال تعالى في سورة الأعراف[4]: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾، وقال في سورة الشعراء[5]: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، فقال: ﴿سَحِرٍ﴾ و﴿سَحَّارٍ﴾، والأصل عند العرب أن ينسبوا إلى الحرفة والصنعة بصيغة «فعّال» غالباً، كالفرّاء، والنسّاج، والنّجار،

(1) سورة الأنعام، الآية: 122.
(2) ينظر: درة التنزيل، ص 130؛ ملاك التأويل: (1/ 472 - 473).
(3) التفسير الكبير: (13/ 172 - 173).
(4) سورة الأعراف، الآيتان: 111 - 112.
(5) سورة الشعراء، الآيتان: 36 - 37.

والطبّاع، والحدّاد[1]، قال ابن سيده (ت 458 هـ): «والباب فيما كان صنعةً ومعالجة أن يجيء على فَعّال، لأن فعّالاً لتكثير الفعل، وصاحب الصنعة، فيُجعل له البناء الدال على التكثير»[2] وقال الرضي: (ت 688 هـ): «إنّ فعّالاً لما كان في الأصل لمبالغة الفاعل، ففعّال الذي بمعنى: ذي كذا، لا يجيء إلّا في صاحب شيء يزاول ذلك الشيء ويعالجه ويلازمه بوجه من الوجوه»[3].

إنّ مجيء صيغة المبالغة (سحّار) في سورة الشعراء مبالغة في إبراز قوة التحدي والخصومة وشدة المواجهة بين فرعون وموسى عليه الصلاة والسلام وهي تناسب غضب فرعون واندفاعه للنيل من موسى أيضاً، كما وصف في السورة المذكورة، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[4]، بيد أن قوة المعارضة والتحدي والخصومة لم تكن في سورة الأعراف بهذا المستوى، فقد جاء فيها: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ

(1) ينظر: شرح المفصل: (6/ 13).
(2) ابن سيده - المخصص، بيروت، د. ت: (15/ 69).
(3) الرضي - شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق: محمد نور الحسن وآخرين، بيروت، 1975م: (2/ 85).
(4) سورة الشعراء، الآيات: 23 - 35.

أَرْضِكُم فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾[1]، هذا من طرف، ومن طرف آخر فإن الملأ من قوم فرعون هم الذين اتهموا موسى بالسحر في سورة الأعراف[2]: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، في حين أن فرعون هو الذي اتهم موسى بالسحر في سورة الشعراء[3]: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ﴾، ولذلك ذكروا كلمة الإحاطة والشمول، وصيغة المبالغة لينفسوا عن بعض ما لحق ملكهم من الكرب ويسكنوا بعض قلقه[4]، وهذا مناسب أيضاً لمقام تأكيد السحر، الذي أُكّد وكُرر في سورة الشعراء أكثر مما في سورة الأعراف[5]، فقد ذكر في الشعراء عشر مرات[6]، وفي الأعراف سبع مرات[7].

- اسم الفاعل ← اسم المفعول:

ولم نجد هذه الحالة إلّا في موضع قرآني واحد أيضاً، كحالة الاستبدال المذكورة آنفاً، قال تعالى في سورة الحجر[8]: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وقال في سورة الزخرف[9]: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، فاستبدل «نبياً» بـ(رسول)، و«النبيّ» من ينبئ عن الله ﷻ : «(وهو «فعيل» بمعنى «فاعل»)[10]، و«الرسول» اسم مفعول، لأنه مبعوث من الله تعالى فهو «فعول» بمعنى «مُفْعَل»[11].

---

(1) سورة الأعراف، الآيات: 104، 111.
(2) سورة الأعراف، الآية: 109.
(3) سورة الشعراء، الآية: 34.
(4) ينظر: الكشاف: (3/ 112)؛ التفسير الكبير: (24/ 132)؛ البحر المحيط: (7/ 15).
(5) ينظر: التعبير القرآني، ص: 293.
(6) الآيات: 34، 35، 37، 38، 40، 41، 46، 49، 153، 185.
(7) الآيات: 109، 112، 113، 116 - في موضعين، 120، 132.
(8) سورة الحجر، الآية: 11.
(9) سورة الزخرف، الآية: 7.
(10) الجوهري - تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، 1984م، ط 3: (1/ 74) مادة: نبأ.
(11) ينظر: شرح الشافية: (1/ 162).

وإنما ذكر النّبي في آية الزخرف ليتسق ذكره مع ما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾[1]، وذكر الرسول في آية الحجر ليتسق ذكره مع ما تقدم في قوله تعالى أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾[2]، والمعنى: «ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً»[3]، فذكر الإرسال تأنيساً للرسول ﷺ وتسليةً له وهو يلقى ما يلقاه من المشركين الذين كانوا يقولون: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[4]، فقصّ عليه الباري ﷻ قصص الرسل من قبله[5] تقويةً لنفسه، وحفزاً على مواجهة الموقف بكل ما تتطلبه جسامة الرسالة الإلٰهية من الاحتمال والصبر أسوةً بمن صبر واحتمل من المرسلين قبله ممن كان يجهل أخبارهم لولا القصص النازلة عليه بالوحي.

- صيغة المبالغة ← صيغة المبالغة:

قال تعالى في سورة صٓ[6]: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، وقال في سورة هود[7]: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، فقيل (عَجيب) و(عُجاب) وصيغة «فعيل» في أصلها تدل على الثبوت واللزوم، فإذا أريد المبالغة في الوصف حُوّل إلى «فُعال»، نحو: طويل وطُوال، وكبير وكُبار، وعجيب وعُجاب، فإذا أفرط في الزيادة قيل: «فُعّال»، ككُبّار، وحُسّان، قال الخليل (ت 175 هـ): «بين العجيب والعُجاب فرق، أما العجيب فالعجب يكون مثله، وأما العُجاب فالذي تجاوز حدّ العجب»[8]، وقال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾: «إن العجاب هو

(1) سورة الزخرف، الآية: 6.
(2) سورة الحجر، الآية: 10.
(3) الجامع لأحكام القرآن: (10/ 6).
(4) سورة الحجر، الآية: 6.
(5) ينظر: ملاك التأويل: (2/ 722 - 723).
(6) سورة صٓ، الآية: 5.
(7) سورة هود، الآية: 72.
(8) لسان العرب: 1/ 581 مادة: عجب.

المعجب، إلّا أنه أبلغ من المعجب، كقولهم: طويل وطُوال، وعريض وعُراض وكبير وكُبار»[1]، وقال الرضي: «والظاهر أن فُعالاً مبالغة فَعيل في المعنى، فطُوال أبلغ من طويل وإذا أردت زيادة المبالغة شدّدت العين فقلت: طُوّال»[2].

إنّ بين قوليه تعالى ﴿عَجِيبٌ﴾ و﴿عُجَابٌ﴾ تدرّج في العجب بحسب قوته، وفكرة التدرج ههنا مناسبة لتعليل الانتقال من «فعيل» إلى «فُعال» ويمكن ردّها إلى أصول في الاستعمال القرآني كلّه، من ذلك وصفه تعالى للكافرين الذين عجبوا من أن يجيء إليهم منذر منهم بقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾[3]، وحين وصف العجب الأكبر كولادة الامرأة العجوز العقيم من الشيخ الكبير في قصة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام مما لم تجربه العادة أكّد العجب بالحرف المشبه بالفعل وباللام المزحلقة كما يقول النحاة[4] إلى خبره فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾، تقصد «استعظام نعمة الله تعالى عليها في ضمن الاستعجاب العادي، لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته ﷻ»[5]، بيد أن عجب المشركين الموصوف في سورة «صٓ» أبلغ وأكبر من عجب العجوز العقيم حين بشّرتها الملائكة بولادة إسحاق، إذ كيف يمكن أن يؤمنوا بوحدانية الله تعالى وينفوا الشرك من أنفسهم، وذلك خلاف ما تعودوا عليه بعد أن أجمعوا عليه، وأقاموا على عبادة آلهتهم الزمن الطويل، وحين طرقهم الدين الجديد كان أول ما جاءهم به ردعهم عن الشرك، ودعوتهم إلى التوحيد، فاستسهلوا إعلان الحرب عليه، وآثروا حمل السيف على الإقرار بكلمة التوحيد[6]، صادرين في ذلك عن عجبهم المتفاقم الكبير من دعوته إياهم إلى ما يخالف عاداتهم مما عدّوه محالاً،

(1) التفسير الكبير: (26/ 178).
(2) شرح الشافية: (2/ 136).
(3) سورة قٓ، الآية: 2.
(4) ينظر: مغني اللبيب، ص: 300 - 301.
(5) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (4/ 226).
(6) ينظر: التعبير القرآني، ص: 36 - 37.

فكان الاستهلال في الآية بالاستفهام الإنكاري المعقب عليه بإنَّ واللام، والعدول من «عجيب» إلى «عُجاب»، وذلك فيما حكاه تعالى من قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾، لأنّ فُعالاً أبلغ من فعيل عند العرب في الدلالة على الوصف، وذلك في إطار الجذر اللغوي الواحد. وربما وقع الاستبدال القرآني في إطار جذرين لغويين مختلفين مع بقاء الصيغة على حالها كعزيز، وعليم في قوله تعالى في سورة الفتح[1]: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وقوله فيها أيضاً[2]: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، والعالِم في وصفه تعالى: هو الذي لا يخفى عليه شيء[3]، والعزة: حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب، والعزيز: هو الممتنع الذي لا يُقهر[4]، والعليم مبالغة في الوصف بالعلم، ويتأسس قوله تعالى في الآية الأولى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ على قوله قبلها: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فذكر أمر القلوب، والإيمان يرتبط بالقلب، ولا يعلم ما في القلوب إلّا الله، فهو تعالى كما وصف نفسه: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[5]. وقوله: ﴿حَكِيمًا﴾ إشارة إلى أنه يفعل على وفق العلم الواسع الذي لا يحدّه شيء، وقد جاءت الآية الثانية في سياق إنزال العذاب على الكافرين بعد قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۖ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[6]، فقد ذكر الله قدرته على عقابهم وقهره

(1) سورة الفتح، الآية: 4.
(2) سورة الفتح، الآية: 7.
(3) المفردات في غريب القرآن، ص: 344.
(4) إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، ص: 323 - 324؛ المفردات في غريب القرآن، ص: 333.
(5) سورة سبإ، الآية: 3.
(6) سورة الفتح، الآيتان: 6 - 7.

بعذابهم من موضع عزته وقهره وغلبته[1] التي يصرفها تعالى بحكمته البالغة، ولما كان النفاق والشرك والظن السيء بالله مما يغضبه، فقد ألمحت الآية إلى عزته وقدرته على اللّعنة والغضب وإعداد المصير السيئ لكل ذي حالة من المذكورين في نص الآية، كما أنه القادر على إنزال السكينة في نفوس المؤمنين المذكورين في الآية الأولى ليزيدهم إيماناً ويثبتهم على الطريق، وفعل الكون في الآيتين ينبئ عن معنى الأزلية[2] في العلم والحكمة والعزة ﷻ. وربما جاءت مواضع استبدال صيغة المبالغة بنظيرتها في نصوص بعض الآي مما وصفه الله به نفسه تعالى من غير أن يقترن ذلك بفعل الكون، لأن مفهومه في الاعتقاد حاصل ومتحقق بفعل الإيمان به، قال تعالى في سورة فصلت[3]: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وقال في سورة غافر[4]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فذكر البصر والعلم على وجه المبالغة بصيغة الوصف بهما، وقد اقترنت الاستعاذة من الشيطان الموسوس للإنسان مما نعلمه ولا نراه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، لأنه تعالى القادر وحده المطّلع بسمعه وعلمه على ما يفعله الشيطان في نفوس عباده، وقد وصف ﷻ نفسه في مواجهة شياطين الإنس ممن يوقع الريبة في نفوس العباد بالمجادلة في آيات الله بغير سلطان ليكون ثمة فرق ظاهر بين شيطان وشيطان، وليعلم أن أفعال شياطين الإنس وأقوالهم معاينة بالبصر، بخلاف نزغ الشيطان ووساوسه وخطراته التي يلقيها في القلب، فيتعلق بها علمه، فيأمر بالاستعاذة به منها بوصفه سميعاً عليماً بها، كما يأمر بالاستعاذة من أفعال شياطين الإنس

(1) ينظر: التفسير الكبير: (28/ 81، 84، 85)؛ من أسرار التعبير في القرآن، ص: 147 - 149.

(2) ينظر: نكت الانتصار لنقل القرآن، ص: 188 - 189؛ المفردات في غريب القرآن، ص: 444؛ البرهان في علوم القرآن: (4/ 123)؛ الإتقان: (2/ 256).

(3) سورة فصلت، الآية: 36.

(4) سورة غافر، الآية: 56.

بوصفه سميعاً بصيراً، فضلاً عن إدراك المأخوذين بها لمصادرها البشرية بالرؤية والمعاينة[1].

- اسم الفاعل ← اسم التفضيل:

قال تعالى في سورة هود[2]: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾، وقال في سورة النحل[3]: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، واسم الفاعل واسم التفضيل في هاتين الآيتين مأخوذان من جذر لغوي واحد كما لا يخفى، بيد أن بينهما من الفرق الدلالي ما سوّغ الاستبدال القرآني بينهما، فقد تقدم آية هود ما يُفهم منه المفاضلة، قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾[4]، والمراد: أفمن كان على بينة من ربه كمن أراد الحياة الدنيا وزينتها؟ وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾[5]، ثم قال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝١٩ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ۝٢٠ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝٢١﴾[6]، وهذه الآيات فيمن صدّوا عن الدين، وصدّوا غيرهم أيضاً، فاستحقوا لذلك مضاعفة العذاب، لأنهم ضلّوا وأضلّوا، فكانوا الأخسرين للفعلتين، ويتضمن قوله تعالى بعد ذلك: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[7] المفاضلة بين الكفار الجاحدين الذين يصدّون عن سبيل الله

(1) ينظر: ابن قيّم الجوزية - التفسير القيّم، جمعه: محمد أويس الندوي، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، 1948 م، ص: 586.
(2) سورة هود، الآية: 22.
(3) سورة النحل، الآية: 109.
(4) سورة هود، الآية: 17.
(5) سورة هود، الآية: 18.
(6) سورة هود، الآيات: 18 - 21.
(7) سورة هود، الآية: 24.

ويبغونها عوجاً، والمؤمنين الذين يعملون الصالحات، لذا ختمت آية هود باسم التفضيل الدال على الزيادة في أصل الفعل[1]، وإفادة «بُعد الفاضل من المفضول وتجاوزه عنه»[2].

أما آية النحل فلم يتقدم قبلها ما يُفهم منه المفاضلة والتفاوت، ولم يتقدمها ما يشير إلى أن المذكورين قد صدّوا غيرهم عن سبيل الله، وإنما تقدمها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾[3]، ثم قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[4] فلم يذكر الله تعالى في هذه الآيات ما يوجب مضاعفة العذاب لهم، لذا كان الاختتام باسم الفاعل الذي لا يتضمن زيادة في أصل الفعل كما في اسم التفضيل، قال ابن سيده: (الباب فيما كان ذا شيء وليس بصنعة يعالجها أن يجيء على «فاعل»، لأنه ليس فيه تكثير)[5].

- اسم المفعول ← اسم المفعول:

وذلك هو: [مَبْعُوثُونَ]، و[مَدِينُونَ] في قوله تعالى في سورة الصافات[6]: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، وقوله فيها[7]: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا

(1) ينظر: همع الهوامع: (2/ 107).
(2) شرح الرضي على الكافية: (3/ 355).
(3) سورة النحل، الآيات: 104 - 108.
(4) سورة النحل، الآية: 109.
(5) المخصص: (15/ 69).
(6) سورة الصافات، الآية: 16.
(7) سورة الصافات، الآية: 53.

لَمَدِينُونَ﴾، وقد جاءت الآية الأولى في الحديث عن البعث بعد الموت بدليل الآيات التي بعدها، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾[1]، وهي حكاية ما قاله الكفار من إنكار البعث. والمبعوث: هو الذي يخرج من قبره، ويحيا بعد موته[2]، والمدين: هو المجازى عن كسبه[3]، والبعث قبل الجزاء وهو إنما يحدث من أجله، لذا كانت صيغة اسم المفعول: [مَبْعُوثُونَ] أليق بهذا المكان، بخلاف الآية الثانية، وهي قول مؤمن بعد دخوله الجنة، يحكي عن لسان قرينه الكافر في الدنيا، قال تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾[4]، يقول ذلك بعد دخوله في النار، ليلقى الجزاء الذي أنكره، لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾[5]، فهذا المؤمن الذي حكى الله تعالى عنه أنه أخبر عن صاحبه في الدنيا أنه كان ينكر أن يحيا، ويجازى بما فعل هو الذي رآه في سواء الجحيم، وقال له: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾[6] «فالتقريع على ما أنكر يقع إذا تحقق، وحصل فيه من كفر»[7]، فالموقف هذا موقف جزاء بعد البعث ناسبته صيغة [مَدِينُونَ] كمناسبة نظيرتها لسياق البعث.

وقد وجدنا من استبدال اسم المفعول بنظيره استبدال مفرده بجمعه في إطار الجذر اللغوي الواحد، كـ[مَعْدودَةً]، و[مَعْدُودَاتٍ] في قوله تعالى في سورة

(1) سورة الصافات، الآيات: 19 - 21.
(2) المفردات في غريب القرآن، ص: 52 - 53.
(3) المصدر نفسه، ص: 175؛ الكشاف: (3/ 241)؛ التفسير الكبير: (26/ 139).
(4) سورة الصافات، الآيات: 51 - 53.
(5) سورة الصافات، الآيتان: 54 - 55.
(6) سورة الصافات، الآيتان: 56 - 57.
(7) درة التنزيل، ص: 394؛ وينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 179.

البقرة[1]: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقوله في سورة آل عمران[2]: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في صفة الأيام، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول الآية الأولى أن اليهود قالت: إنّ الله أقسم أن يدخلهم النار أربعين يوماً، عدد أيام عبادتهم العجل، فأكذبهم الله تعالى[3]: بقوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وروي عنه أن اليهود كانت تقول أيضاً: إنما هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما يعذب الناس في النار يوماً واحداً من أيام الآخرة لكل ألف سنة من أيام الدنيا، ثم ينقطع العذاب، فأنزل الله الآية[4]، والعرب تستعمل الجمع للقلة، والمفرد للكثرة في مواطن، منها: صفة جمع مالا يعقل، نحو: أيام معدودات للقليل، وأيام معدودة للكثير[5]، قال الأشموني (ت 929 هـ): «والأفصح في جمع القلة مما لا يعقل، وفي جمع العاقل مطلقاً المطابقة، نحو: الأجذاع انكسرن، ومنكسرات، والهندات والهنود، انطلقن، ومنطلقات، والأفصح في جمع الكثرة مما لا يعقل الإفراد، نحو: الجذوع انكسرت ومنكسرة»[6]. وعلى هذا فإن إفراد الصفة في آية البقرة مفيد أن عدد الأيام أربعون، وهذا كثير، وجمعه في آية آل عمران لأن عددها سبعة، وهذا قليل، قال ابن جماعة (749 - 819 هـ): «لأن قائلي ذلك فرقتان من اليهود، إحداهما قالت: إنّما نُعذَّب بالنار سبعة أيام عدد أيام الدنيا، وفرقة قالت: إنما

(1) سورة البقرة، الآية: 80.
(2) سورة آل عمران، الآية: 24.
(3) الجامع لأحكام القرآن: (2/ 10).
(4) الواحدي - أسباب النزول، بيروت، د. ت، ص: 17.
(5) ينظر: معاني النحو: (1/ 71).
(6) الأشموني - شرح الأشموني على ألفية ابن مالك المسمى منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، ومعه كتاب واضح المسالك لتحقيق منهج المسالك، تأليف محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1970 م، ط 3: (1/ 15 - 16).

نعذّب أربعين يوماً عدد أيام عبادة العجل، فآية البقرة تحتمل قصد الفرقة الثانية حيث عبّر بجمع الكثرة، وآل عمران بالفرقة الأولى حيث أتى بجمع القلّة»[1].

- اسم التفضيل ← اسم التفضيل:

قال تعالى في سورة الصافات[2]: ﴿فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾، وقال في سورة الأنبياء[3]: ﴿وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾، فقال: ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ و﴿ٱلْأَخْسَرِينَ﴾، كما قال: ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ و﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في موضع استبدال اسم الفاعل باسم التفضيل مما عرضنا له في موضع سابق[4]، والآيتان المذكورتان من قصة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام حينما أراد أعداؤه من الكفار أن يكيدوه ليتخلصوا منه، فبنوا له بنياناً عالياً، وأجّجوا ناراً تحته، وألقوه فيها، ولكن الله تعالى نصره عليهم، فكانت النار برداً وسلاماً عليه، وغلبةً وقهراً لهم، وإنما جاءت ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ في آية الصافات لما سبقها من قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾[5]، استحضاراً لحالة علوّ البنيان الذي شيّدوه لأن الله ﷻ قد رفع إبراهيم عليه السلام وأعلى منزلته عندما رماه ذووه الكافرون من أعلاه إلى أسفله، فكانوا الأسفلين، و«انقلب عالي أمرهم في صعود البناء، وسافل أمر إبراهيم عليه السلام لمّا حُطّ إلى النار، أنْ صار ذاك سافلاً، وأمر النبي عليه السلام عالياً»[6].

وإنّما وُصفوا بـ(الأخسرين) في آية الأنبياء استحضاراً لموقف المكابدة التي جرت بين إبراهيم وقومه، فقد قال لهم: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟

(1) الإتقان: (3/ 393)؛ معترك الأقران: (1/ 89)؛ تبيان البيان في مشكلات القرآن، ص: 252 - 253.
(2) سورة الصافات، الآية: 98.
(3) سورة الأنبياء، الآية: 70.
(4) ينظر: الصفحة 122 من هذا الكتاب.
(5) سورة الصافات، الآية: 97.
(6) درة التنزيل، ص: 300؛ وينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 142 - 143؛ القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، ص: 161.

مُدْبِرِينَ﴾[1] رداً على كيدهم الذي أرادوا به[2]، فغلبهم عليه الصلاة والسلام ولم يكيدوه[3]، لأنه كسّر أصنامهم: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾[4]، فخسروا بعد محاولتهم نصر آلهتهم: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[5]، لأنهم لم يفلحوا على أية حال.

ومن استبدال اسم التفضيل بنظيره ما يخرج من إطار الصيغة المأخوذة بأصواتها من الجذر اللغوي إلى التفضيلية التي تسبق الجار والمجرور في التراكيب، وذلك كقوله تعالى: ﴿أَشَدُّ مِنَ﴾.. في سورة البقرة[6]: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، و﴿أَكْبَرُ مِنَ﴾.. في قوله فيها أيضاً[7]: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وقد تحدثت الآية الأولى عن الشدة على الكافرين وقتلهم أينما وجدوا، لقوله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾، بخلاف الآية الثانية التي أشارت إلى كبائر الأمور، فقد قال تعالى فيها: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾، ثم قال: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾، ويتكون المفاضلة بين كبيرة وكبيرة، كما في قوله تعالى: أيضاً مفاضلة بين إثم الخمر والميسر ونفعهما: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ

(1) سورة الأنبياء، الآية: 57.
(2) سورة الأنبياء، الآية: 70.
(3) ينظر: درة التنزيل، ص: 300؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 142.
(4) سورة الأنبياء، الآية: 58.
(5) سورة الأنبياء، الآية: 68.
(6) سورة البقرة، الآية: 191.
(7) سورة البقرة، الآية: 217.

إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[1] ليُفهم من هذا النهي عنهما، وإنما كانت الفتنة المشار إليها في آية البقرة المذكورة أولاً أشدَّ من القتل، لأنها تشتمل على أمور كثيرة في القرآن الكريم، وفيها خسارة للدنيا والآخرة لقوله تعالى في سورة الحج[2]: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾، وقوله في سورة البقرة أيضاً[3]: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾، وقتال الكفار أهون من انتشار الفتنة بين الناس.

(1) سورة البقرة، الآية: 219.
(2) سورة الحج، الآية: 11.
(3) سورة البقرة، الآية: 193.